نحو رؤية علمية للتراث

بعض مظاهر التفكير المادي في تراثنا الفكري

بقلم حمدان يوسف

تأثير الرشدية في اوروبا

ان هذه الامثلة على مظاهر من التفكير المادى في تراثنا الفكرى لا تعني ان هؤلاء الفلاسفة والمفكرين كانوا ماديين ديالكتيكيين ، وما كان يمكن ان يكونوا كذلك في عصرهم. فمستوى المعرفة امر تاريخي يرتبط بالتشكيلة الاقتصادية الاجتماعية، التي تتفاضل فيما بينها بالانتاجية. والحاجات العملية للانتاج هي التي تقود الى تطوير العلوم الطبيعية ، والتي يعتبرها كارل ماركس "اساس المعرفة كلها " . والمعرفة الصادقة تطابق الموجود ، الذى هو في حالة تغير مستمر، وبالتالي تكون المعرفة بحكم تبعيتها للموجود في تغير مستمر ايضا. وعند الحكم على المعرفة ومستواها ينبغي التعرف على ما يشترطها وهو الوجود ، الواقع الذى نشات فيه، كما هو في حينه ،ومن اجل الوصول الى تقييم واقعي لا يكفي النظر فقط الى طابع العلاقات السائدة بل ينبغي النظر كذلك الى مستوى تطور العلوم ، خاصة الطبيعية ، والتصورات الفكرية ، ونمط التفكير والحو الفكرى للمجتمع – حالة ثقافته وحالته النفسية ، وطابع تاثير هذا الشكل او ذاك باشكال الادراك .. ونظرة شاملة كهذه تبين انه لم يكن من الممكن لاولئك المفكرين الكبار من العرب المسلمين انذاك ، حيث لم يكن نمط الانتاج قد حقق التطور الكبير في التكنولوجيا والعلوم الطبيعية خاصة ذات الارتباط المباشر بالتطور الصناعي، وحيث لم تبرز طبقة ثورية تناضل ثوريا لدك كل الاسس الفكرية والاجتماعية التي تعيق تطورها كما حصل في اوروبا ابان الثورة البرجوازية ضد الاقطاع ، فما كان من الممكن لاولئك المفكرين الكبار ان يكونوا مثل ماركس وانجلز ماديين ديالكتيكيين في نظرتهم للكون والمجتمع والانسان ، ولكنهم في القياس التاريخي كانوا يحتلون الذروة في زمانهم ، وقد اعتمدت فلسفة عهد النهضة بعودتها للعناصر المادية في الفكر الارسطوى على الفكر الفلسفي العربي الاسلامي، وشكلت فلسفة ابن رشد خاصة اساسا للتفكير المادى ، المعادى للاهوتية في القرون الوسطى ، وشكلت العنصر الجوهرى في ايديولوجيا المعارضة البرجوازية المبكرة المعادية للاقطاعية ، وتمثلت بكبار المفكرين المعادين للبابوية في فرنسا والمانيا وايطاليا ، مكونة اتجاها فكريا عرف بالرشيدية اللاتينية عمل على الاستفادة مما في محاولات ابن رشد للتوفيق بين الحكمة والشريعة ، من فصل بين العلم والعقيدة ، من اجل التخلص من التحريم اللاهوتي لممارسة العلوم ، واصبح في القرون الوسطى اساسا للفكر البرجوازى الناهض، المعادى للاقطاع والساعي للتخلص من اسار اللاهوتية ، واستخدم تلك الاراء حتى زمن – باكون – للتخلص من ملاحقات الكنيسة عند عرض اطروحات لا توافق عليها السلطة الكنسية ويشير الكتاب السوفييتي لتاريخ الفن في جزئه الاول الى ان تعاليم ابن رشد حول التوفيق بين الحكمة والشريعة قد خدمت التطور الحر للعلوم في اوروبا .

الموقف من الفكر التقدمي

لقد تحددت الفلسفة على الدوام ، في نشوئها وتطورها بمصالح الناس ، التي تنشا من اوضاعهم ضمن نظام من العلاقات المحددة والصراع بين النظرتين المادية والمثالية صراع ايديولوجي يعكس الصراع الطبقي. وقد سعى ممثلو المادية لاستخدام سلاح الفكر لدحر خصومهم ، بعكس ممثلي الطرف الاخر الذين اتبعوا اساليب مغايرة . فان افلاطون هو اول من حاول التخلص من خصومه باتهامهم بالكفر ،وكان هذا يعني حسب القوانين السائدة انذاك الحكم بالموت ، واراد ان يشترى كل اعمال ديمقريطس ليحرقها .

-وجاء الغزالي من بعده فاوجب تكفير الفلاسفة اليونانيين "وتكفير شيعتهم من المنتسبين الاسلاميين كابن سينا والفارابي وغيرهما " ، وقد راى دانتي في ملهاته الالهية ابن رشد وابن سينا مع الفلاسفة اليونانيين في الجحيم . وشنت حاربت الرجعية في الشرق ابن رشد وتعاليمه شهدت اوروبا في القرن الثالث عشر تحريم تعاليم ابن رشد، واحراق كتبه ومنع تدريس مؤلفاته في جامعات اوروبا مثل جامعة باريس ، وفي محاربة الرجعية الاوروبية لافكار التقدم استندت على مؤلفات الغزالي كما فعل توما الاكويني .

ان الموقف تجاه ابن رشد، موقف التبني او موقف العداء ، لم يتحدد من زاوية قومية، بل حدده الموقف الطبقي تجاه الفكر التقدمي دون النظر الى اصله القومي او الديني .

تكتب الأرض أسماءها

شعر عبد الناصر صالح

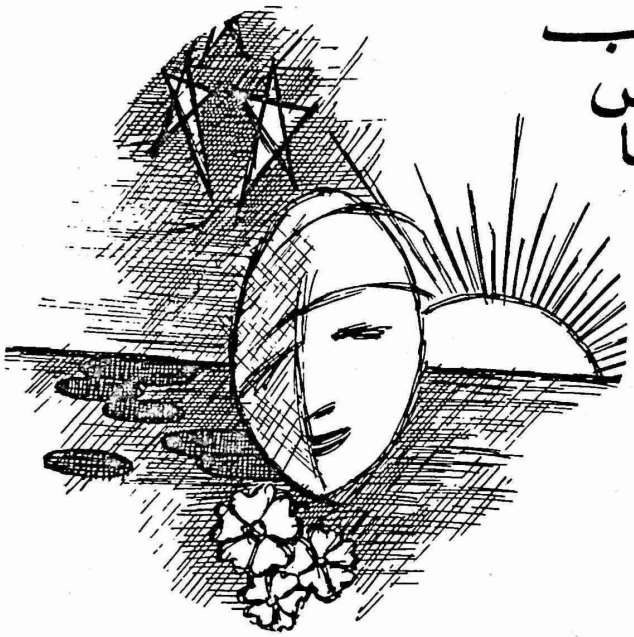

البدء والمنتهى :

غريبا يمر المساء المدجج باللعنة القاسية
يطوق زنديك
يسترق الضحكة الزاهية
غريبا يداهمك الظل
والجسد المتنقل يختفي فجاة
في الذهول
ويشهد ان الحصى اغنية.
يا سرابا يغطي المدى والزمان
يا قطارا يسافر قبل الاوان
ويا مقلا قانية.
كيف اسميك موتي ؟
– اسميك سجني ، اسميك ام الخلايا
وانكر انك نقطة البدء والمنتهى
هذه راحتي فاشهدى
هذه كبوتي فاشهدى
هذه جثتي فاشهدى.

انتظـــار:

متى احتويك ؟
احارب فيك انفعالي القديم
واحزاني الماضية.
– هل نويت الصلاة مع الفجر
هل سامرتك الشواطئ والمدن النائية ؟

التلاحـم :

رهيبا يمر المساء المدجج باللعنة القاسية

هنا واحة من بقايا الشتاء
هنا شارع من حطام اللقاء
هنا ، في الندى، ساقيه.
شرفة ، جبهة عاليه
يخرج الصبح من همسات الصغار
ومن ساعد لا يجف عليه العرق.
– هل احترفوا فوقك الموت ؟
– هل سافروا في الخطوط العريضة نحوك ؟
– هل طبعوا قبلة في الشفاه
– وهل روضوا فيك هول الطرق ؟
كاد موتي يموت
وكادت عيوني تذيب الشفق.
اذن فاشهدي
فاشهدي
فاشهدي.

إضاءة

"لقد تبنت البلشفية عند ظهورها في سنة ١٩٠٣ شرعة النضال الذى لا يعرف الهوادة ضد الثورية البرجوازية الصغيرة شبه الفوضوية (او المستعدة للمغازلة مع الفوضوية) ، الشرعة التي كانت موجودة على الدوام عند الاشتراكية – الديموقراطية الثورية، والتي توطدت على الخصوص عندنا في سنوات ١٩٠٠ – ١٩٠٣ عندما كانت تؤسس حزب جماهيرى للبروليتاريا الثورية في روسيا. لقد تبنت البلشفية هذا النضال واستمرت فيه ضد الحزب الذى كان يعبر اكثر من الجميع عن نزعات الثورية البرجوازية الصغيرة ."

– لينين

ابجدية

في صبحة كل خميس من كل اسبوع ، ومع وصول "الطليعة" في موعدها الاسبوعي الى قرائها ، كان يأتيني صوته من خلال جهاز الهاتف. كان حريصا على ان يقرأ "الابجدية" حرصه على قراءة كل شيء في "الطليعة" . وكان يؤكد في كل مرة ضرورة الكتابة اكثر واكثر حول القضية الثقافية في المناطق المحتلة ، وكان يناقشني في كل كلمة مكتوبة . ولعل كثيرا من الافكار والاراء التي اوردتها في "الابجدية" كانت يوحي منه، وتحمل نظرته وفكره.

اول امس شيعناه الى مثواه الاخير.

انه عزيزنا الكبير الدكتور خليل البديرى.

عرفته وانا صبي صغير حينما كان يجوب جنوب فلسطين معالجا عيون فقراء الفلاحين. وكان الناس يذكرونه بكل الخير. وعرفته من خلال الاحاديث التي كان يحدثنا بها احد اساتذتنا الشباب، ويروى عنه الكثير من صفات البطولة والتضحية ومقارعة الانتداب البريطاني. ثم عرفته من خلال نشاطاته التي كنت اقرأ عنها، والتقيت به في كثير من المناسبات العامة، واستمرت لقاءاتي به الى ان ودعناه جميعا امس الاول.

كان اهتمامه بالقضية الثقافية استمرارا واستكمالا لنظرته التي كانت تعادى الافكار المتغطرسة المتعالية ، وافكار التفرقة العنصرية والتعصب، اذ كان رئيسا لعصبة مكافحة الفاشية، ومثل فلسطين في عدد من اللقاءات الدولية الهامة التي كانت تحاول لجم الممارسات الفاشية التي كانت تمارسها النازية الالمانية. كما ان اهتمامه بالثقافة الوطنية كان استجابة لمذهبه الاشتراكي العلمي الذى جعل منه هاديا له طيلة حياته الحافلة بالعمل والنضال. وكان اهتمامه بالثقافة الوطنية نابعا من تجربته الطويلة في العمل مع الحركة الوطنية الفلسطينية والتي كان احد قادتها البارزين

كان اهتمامه بالثقافة الوطنية واصراره على ضرورة تشكيل لجنة "لحماية وتطوير الثقافة الوطنية الفلسطينية" هو هاجسه الذى كان يحدثني به كلما كان لنا حديث. كان يرى اننا نهمل عاداتنا الثقافية وتضيع بنا السبل ، بين انكار وتزييف واهمال ، وكان يرى ان طغيان السلعة الثقافية الامبريالية تحمل في طياتها اشد الاخطار التي تهددنا في مرحلتنا الحاضرة من النمو وبناء الهوية القومية. وكان، رغم هذا كله، يؤمن اننا قادرون على حماية ثقافتنا" وتطويرها وجعلها في خدمة الانسان ومستقبله.

لقد مضى بالامس مناضل كان ابنا حقيقيا لهذا الشعب الحقيقي.

لقد مضى بالامس، وترك معنا ذكرى باقية كلها التقدير والوفاء.

"محمد البطراوى "